العدد الثاني عشر السنة الثانية

المنبر

١٣١٥

﴿ يوم السبت ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ ﴾

﴿ استنهاض همم ﴾

(٥)

ولنعد بك الى الحملة الصليبية وذكر السبب الذي كان عاملا في اخفاقها . قيض الله للاسلام في ذلك العهد رجلين نبيلين أو وليين مقربين بل ملكين سماويين هبطا الى العوالم السفلية وتجليا بجلباب البشرية وسميا بنور الدين وصلاح الدين . يقولون لكل اسم من مسماه نصيب وما أظهر انطباق قولهم هذا على الرجلين . فلقد كان الاول نوراً انسلخت باشعته ظلمات الظلم واستبان بوميضه مهيع العدالة والحكم وكان الثاني صلاحا لامته وعماد وجودها وملاك راحتها وقوام سعادتها . لم يك الرجلان من صميم العرب ولا من سروات عدنان ولا من بيوتات قريش ولا من معادن الخلافة فان أحدهما تركي والآخر كردي لكنهما وصلا في استجماع المزايا الانسانية واستتمام الكمالات البشرية الى مرتبة هي أقصى ما يتاح لغير الانبياء والمرسلين وبلغا من التزام حدود الشرع والاستمساك بعروة الدين وانتهاج منهج السلف الصالح مبلغاً لم يبلغه بعد الخلفاء الراشدين أحد غيرهما . هذا ما حمل

بعض نقاد المؤرخين على ادماجهما في مصاف الخلفاء الراشدين وطي اسمهما في سجل أسمائهم. وحق ما فعل. دين وعلم وعفة ونجدة ونخوة وبسالة وحزم ودهاء وبصارة وحماية وزهادة ورأفة وتواضع وهل يعوز الخلافة الراشدة غير هذه الخلال. أليس نور الدين هو الذي كان يتبحث عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ويتقصى شؤونه كلها ليقتدي بها ويهتدي بهديها؟ أليس هو الذي كان يخاطر بنفسه في الدفاع عن بيضة الاسلام وحوزة الامة فقال له بعض عظماء دولته (الله الله في نفسك يامولاي ارفق بها ولا تعرض المسلمين بعدها للخطر) فغضب من مقالته وقال (من يكون محمود، يعني نفسه، حتى تتوقف سلامة المسلمين عليه ان للمسلمين ربا يتولى حفظهم وكلاءتهم) الله اكبر هذا القول من نور الدين جدير بان يتخذ قانونا في معاملة الملوك لامهم فلا يرون لانفسهم عليهم فضلا ولا منة فضلا عن استدراجهم في العبودية وامتهانهم بسلب ارادتهم واختيارهم واماتة نفوسهم وهضم حقوقهم وحرمانهم من واجباتهم بل انزالهم منزلة البهائم تغدو وتروح في حاجات أصحابها ولا ينالها من سعيها الا بعض العلف يلهو به كرشها

أما صلاح الدين فكان آية من آيات الاسلام في القرون الوسطى. كان جامعاً بين شهامة الملوك وعظمة السلاطين وبين دعة الزهاد وسكينة النساك. شؤونه في ادارة بلاده الداخلية وفي سياستها الخارجية واعماله في ابان السلم وأوقات الحرب ومعاملته للعدو في كلتا الحالتين ـ كل ذلك لو دوّن كان خير نظام للدول واحسن قانون تحذو على مثاله الشعوب والامم. لو عرضت وقائع هذا البطل واعماله واطواره واقواله على ما اخترعته اوربا ودعته حقوق الدول لكانت منطبقة عليه بل ربما كانت على وضع اقرب الى طبائع

الناس وأضمن لمصالحهم وأوفق لنواميس الاجتماع البشري وأكفل لانتظامه وقد كان رحمه الله كريم الاخلاق طيب النفس واقفاً عند حدود الشرع مع معاهديه وأهل ذمته يبذل لهم في حالة السلم والهدون من العدل والمساواة بينهم وبين غيرهم والرحمة والرفق بهم وحسن المعاشرة والمجاملة معهم مالا يطمعون به ابان الحرب وساعة الطعن والضرب ويريهم بعد انسلاخ الهدنة ومضيّ مدة العهد من الصلابة والحمس الديني والشدة والغلظة مالا يتخيلونه فيه وقت السلم ولا يستشعرونه منه في سويعات الانس والمباسطة . بينما هو نور بسيط يبهج النفس ويلذ المشاعر في وقت السلم اذا هو في الحرب شرارة كهربائية وصاعقة جوية تقتنص الآجال . وتدك راسيات الجبال . نسيم لطيف ينعش الحواس ويفرح القلب فما اسرع ما يتحول الى اعصار فيه نار يخسف الابراج والحصون وينزل بمن لحقه ريب المنون ماء زلال سائغ للشاربين حتى اذا استصرخته الحرب عاد سيلا أتياً (غريباً) يقتلع مايمر عليه ويجرف ماعترض في سبيله . هكذا فليكن الرجل المسلم هكذا امرنا ان نكون . هكذا كان شأن الامة في الصدر الاول . محاسنة ملائكية في وقت السلم مخاشنة غضنفرية في وقت الحرب . بهذا امتدرواق الدين على رؤس الامم . بهذا خضعت الرقاب لتعاليم الاسلام . بهذا تقبلت الناس دين الله ودخلوا فيه افواجاً افواجاً

وكان صلاح الدين نور الله مرقده غيوراً على مصالح امته ولوعاً برفع شأنها مقبلا بشراشره (بكليته) على حمايتها والذود عنها . الا ترى اصغائك وتسمع من نجدة هذا الرجل وبعد همته وكبر نفسه . ايحدث لك عجباً وتهتز نفسك له طرباً ؟ لما كانت تضع الحرب اوزارها بين المسلمين والصليبيين

ويتهادن الطائفتان ويتحاجز العسكران كان صلاح الدين يأذن لجنوده وابطاله ان ينقلبوا الى منازلهم ويقضوا لباناتهم من لقيا اهليهم ومناغاة اطفالهم وما تظنه فاعلا هو ؟ ما كان يناغي ويباغم (١) ويلهو ويناديم بل كان يعمد الى هضبة مشرفة على حدود العدو فينصب عليها خيمته ويرتبط بجانبها فرسه ويركز على بابها رمحه ويعلق فيها شكته(٢) ويرفع فوقها رايته ويلبث هناك في نفر من مماليكه وبطانته طول مدة الهدون والمتاركة تتلاعب بخيمته الرياح المتناوحه . وتهطل عليها السحب الغادية الرائحة . كل ذلك ليكون متبوّأه بمثابة مسلحة (٣) للمسلمين تدرأ عنهم الطواريء . وهو فيها كربيئة (٤) وعين تحرسهم من العدو المفاجيء . ياسبحان الله ! ما اشد كلف هذا الرجل ببذل ماوجب عليه . وما انشطه للقيام بحماية ما اسند من أمر الامة اليه . اما والله لو كان في الاسلام منقبة فوق الخلافة الراشدة لو جبت لهذا البطل وكان احق بها واهلها . لم نضنّ على الرجل بهذه المفخرة الجليلة وهو قد سعى اليها سعيها ؟ لم لانشيد بذكره وننوّه باسمه على تعاقب الايام والسنين ؟ لم لايحفظ لنا تاريخنا شأنه ويوفيه حقه من الاطراء والثناء والشكر ؟ وحق الانصاف لو كان هذا البطل في أمة اليونان القديمة لجذبوا بضبعه الى مصاف الآلهة وبوّؤا تمثاله ارفع مكان في (پانتيون) (٥) استغفرالله ان هذا الاغراق في القول والتنطع في الوصف والتفنن في الالقاب انما بعثه في نفوسنا

(١) باغمها حادثها بصوت رخيم (٢) شكته سلاحه وعدة حربه (٣) المسلحة موضع تمكن فيه المقاتلة ويلتمون فيه اسلحتهم خوف مباغتة العدو (٤) الربيئة العين يربأ العدو ويراقبه (٥) لفظ كان يطلقه اليونان على المعبد الجامع لآلهتهم وربما يقابله عند العرب لفظ الزون بضم الزاي قال في القاموس (الزون موضع تجمع فيه الاصنام وتنصب وتزين)

وهاجه في خواطرنا وحرك به السنتنا واقلامنا ما نراه لهذا العهد في امراء المسلمين وملوكهم من التفريط في شؤون امتهم والتواكل في العمل للنهوض شعثهم والا فالرجل لم يأت ببدع ولم يعمل عجباً ولم يفعل مافعل عن تبرع وتطوع ولم يلزم نفسه بمزاولة ماوراء المطلوب منه ولم يكلفها نفير ما تقتضاه الذمة اياه فهو انما اتى بالواجب عليه لامته وقضى حقاً لها وقام بما تستوجبه بيعتها فان للامة على خليفتها حقوقاً وواجبات كما له عليها طاعة واتاوات وهذا لم يكن بالشيء المجهول بين اهل الاسلام حتى عند عجائزهم . ألم يبلغك قصة تلك العجوز مع الخليفة الثاني ؛ حكي ان عمر رضي الله عنه كان يمس حول المدينة فمر في تطوافه على خباء سمع فيه دندنة فتسمع فاذا بعجوز في صبية يتضاغون (يتصايحون) من الجوع وهي تلهيهم وتعللهم بقدر وضعتها على النار وجعلت فيها ماء وألقت فيه حصيات فجعل الاولاد كلما سمعوا ازيز القدر هدأوا وهوموا فلامها عمر وقال لم لم تأت الخليفة وتأخذي من مال بيت المسلمين مايه كفايتك وكفاية اطفالك فرفعت اليه بصرها وقالت له كالمتعجبة على اي شيء بايعناه اذا لم يتفقد حاجتنا ويتعهد ذوي الفاقة منا بما يسد عوزهم ثم ذهب عمر الى بيت المال واحتمل لهم بنفسه طعاماً وطلب من العجوز ان تجعله في حل من هذه التبعة وكتب بذلك قطا اوصاهم ان يدسوه في مطاوي اكفانه . كل ذلك منه خشية ان يلقى الله وفي الامة التي بايعته عجوز تدعي انه لم يف بحقوق البيعة . هذه هي الخلافة في الاسلام . هذه هي واجبات الخلافة المقدسة . هذا هو الخليفة الذي يخشى ان تلحقه تبعة ولو من احدى عجائز رعيته . هذه هي الامة التي تطالب بحقوقها . هذه هي الامة التي خالط حب الحرية لحمها ودمها . هذه هي الامة التي يعرف كل فرد من افرادها

حتى المجائز ماهو له وعليه . بهذه المبادي الشريفة سادت تلك الامة على من ناوأها . بهذه المبادئ الشريفة غمرت آداب تلك الامة وتعاليمها سائر الآداب والتعاليم

لاريب ان الذكي الالمعي قد فهم مما ذكرناه عن نور الدين وصلاح الدين ان البلاد الشامية لعهدهما كان فيها روح يمكنها به صد غارات الحملة الصليبية وفلّ غربها لكن بقي من شؤون تلك البلاد حينئذ شأن هو منها بمنزلة الاعصاب من الجسم الحيواني او نسبة الشؤون الى ذلك الشأن نسبة العين الى بؤبؤها الذي تجتمع فيه الاشعة وتتوحد متعددها فتبصر العين المرئيات . ذلك الشأن هو الوفاق والوحدة ليس ذلك بين الملكين المذكورين فقط بل بين لفيف الامراء والقواد والابطال ومساعر هاتيك الحروب . ومما يسر السامع ويزيد من ثلجه واستبشاره انه لم يكن تجاه الحملة الصليبية خليفتان كخليفتي غرناطه المشؤومة بل كانت الزعامة الكبرى والسلطة العظمى في يد نور الدين والكل خاضعون له عارفون حقه واقفون انفسهم على شد ازره وموازرته حتى اذا استأثر الله به وزفت الملائكة روحه المباركة الى حيث تسرح ارواح المقربين قام بعده بالامر صلاح الدين خير قيام وساور وحده جميع ملوك الافرنج ومارس اقيالهم وعلوجهم ودافع عن الوطن دفاعاً قانونياً عرفه له الغربيون قبل الشرقيين ولم تزل تلهج به ألسنة الافرنج على اختلاف اللغة والدين

اتفاق امراء الشرق حينئذ والتئام اهوائهم هو الذي سدد سهامهم في نحر العدو ومكن عواليهم من مقاتله . نظروا رحمهم الله في سورة تلك الحملة وشدة بأسها وطغيان مدها وحدة تذمرها (تغيظها) فقابلوها من بأسهم بأشد

ومن طغيان هممهم وحدتها بأطفى وأحد. علموا ان مغبة التفريط في صدها وخيمة وعاقبة التخاذل عن تلافيها مشؤومة فتآمروا وتذامروا (١) وأرهفوا أشفار العزائم ووطنوا النفوس على استعذاب الموت الكريم أو تسترد عليهم بلادهم ويخلص اليهم استقلالهم. لاجرم انهم لو قصروا حينئذ في مدافعة العدو عن هذه البلاد وتقاعدوا عن تحريرها من استرقاقه وانتياشها من فخ سلطته لما علم احد غير الله ماذا كانت حالة الشعوب الاسلامية الآن ليست الشعوب المتوطنة في فينيقية وفلسطين فقط بل كل الشعوب المنتشرة على سواحل البحر المتوسط وسوريا وبين النهرين وجزيرة العرب فان ثمانية قرون كفاية لتضعضعة دين ومحو تعاليم وتغيير لغات وتبديل عادات. فالذي حفظ علينا ديننا وتعاليمنا ولغتنا وعاداتنا منذ ثمانية قرون الى الآن هو تلك الشرذمة التي كان يقودها البطل صلاح الدين. تلك الشرذمة العربية التي اصطدمت بتلك الزحوف الاعجمية فاركستها وجعلت عاليها سافلها وأبلت في مصابرتها بلاء حسناً * تلك الشرذمة التي تقحمت ذلك البحر الخضم وعرضت نفسها للهلاك فيه او تتمثل من لجه الاسلام ومن يدين به الى ابد الآبد خشية امحائه من لوح الوجود وتجلجله في أعماق العدم حيث تختلط نغيته بزمزمة (٢) مادي وأشور وبابل والكلدان والرومان. تلك الشرذمة التي اعترضت ذلك السيل الجارف بغية وقايتنا نحن الذين ادركتنا اوائل هذا السيل ولما نتفق بعد على كيفية سكره (٣) او تحويله عن دراجه (٤). وأعجبا! شرذمة تفعل مالا تقدر مئات من الملايين ان تفعله لاجرم أما ان تكون هذه الشرذمة ارتقت عن أفق الانسانية الى عالم سماوي اعلى او تكون الملايين انحطت عن أفقها الانساني الى أفق البهائم والعجماوات

(١) تذامروا تحاضوا على القتال (٢) النغية الصوت اللطيف والزمزمة رطانة العلوج على الطعام التي لا تفهم (٣) سكره سده (٤) دراجه مجراه

ترى ماهو قدر استبشار العالم الاسلامي باتفاق هذه الشرذمة ونجدة أبطالها؛ ماذا كان وقع عملهم الشريف بين العوالم السماوية وكيف كانت مظاهر التهاني بهم في ملا الحظائر القدسية. لو ترى كيف كانت تتناغى حور الجنان بأحاديث أولئك الابطال كيف كانت تتغني بذكر وقائعهم ومجيد غاراتهم. كيف كانت اولئك العذارى تمسح برشيح عرقهم وتتنافس بطيبه كيف كانت تتخطف رشاش دم شهدائهم وتتضمخ بمسكه وتتزين بخضابه بل لو تسمعت الى براز خ أرواح اجدادهم لسمعت عجباً ـ تسمع لاصوات الابتهاج والبشرى طنينا وصدى في جو ذلك العالم المهيب. تسمع ضجيج الفرح يتدرج فوق تلك الجماهير النيرة اللطيفة. ترى ارواح الآباء تستنشق روائح أولئك الابناء وتتنعش برياها تشوفاً وسروراً. ترى تلك الارواح تسرح عصائب عصائب في فضاء ذلك العالم وتتزاور وتباهي بصنيع خلائفها وبرهم بوالديهم. ترى تلك الارواح ترفرف اسراباً اسراباً ولها حفيف حول شجرة طوبى والبيت المعمور تستنزل الرحمة الآلهية لأولئك الابطال وتناجي الحق برضاها وتسأل رضاه عنهم وتجأر اليه بالدعاء وطلب الغفر لهم أزاء ايامهم المأثورة وجزاء مساعيهم المشكورة والله لا يضيع أجر المحسنين

واختزال الكلام في هذا المقام ان العامل في خيبة الحملة الصليبية هو اتفاق امراء ذلك العهد ونجدتهم وعدلهم ومحاكاتهم للسلف في اعمالهم واحتذائهم مثال الصدر الاول في اطوارهم فكل ذلك حببهم الى قبيلهم ونمى بهم غائلة ثورته واذى نائرته ودفع بذلك القبيل الى الاستماتة مع امرائه في سبيل حماية الوطن وصيانة الشرف علماً بأن التقاعد عن الدفاع مصيره فقد الجنسية واللغة والدين وفي ذلك الشقاء والذل والخزي ابد الابدين